المحاضرة الثانية: ملامح التطور التاريخي للفكر الأنثروبولوجي.

أثارت المناقشات الفكرية التي ثارت حول الأنثروبولوجيا كعلم بسبب طبيعتها التي تجمع تخصصات مختلفة بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، إلى جانب الخلاف حول تحديد التاريخ الفعلي لنشأتها فالبعض يرجعها إلى عصر التنوير الأوروبي بداية من القرن الثامن عشر، وبعض الكتابات ترجح نشأتها إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهناك من يرجعها إلى حقبة تاريخية بعيدة حيث اهتمام بعض الكتابات الإغريقية بالإنسان وثقافته إلا أن إجماع العلماء على أن التطور الفعلي للأنثروبولوجيا قد حدث على يد رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology بالمدرسة البريطانية بزعامة **مالينوفيسكي** والعالم **رادكليف براون**، ومن رواد المدرسة الأمريكية العالم **فرانز بواس**، المدرسة الفرنسية **مارسيل موس** و**كلود ليفي ستروس** الذي يعد رائد الأنثروبولوجيا الحديثة[1].

ترجع نشأة الأنثروبولوجيا الي العصر الإغريقي، حيث يعتبر المؤرخ اليوناني **هيرودوتس Herodotus** أول من قام بجمع معلومات وصفية عن عدد كبير من الشعوب غير أوروبية حيث تناول تقاليديهم وعاداتهم وملامحهم الجسمية وأصولهم السلالية، واستنادا لإسهاماته يعتقد الكثيرون من علماء الأنثروبولوجيا أن منهج هيرودوتس في وصف ثقافات الشعوب وحياتهم وبعض نظمهم الاجتماعية ينطوي على أساسيات المنهج الأثنولوجي. كما تناول **أفلاطون** دراسة السلالات البشرية وتقسيم المجتمع إلى طبقات (الفلاسفة–الجند –العبيد) كما تحدث عما يجب أن يكون عليه مجتمع أثينا في كتابه "الجمهورية"[2].

ووضع **أرسطو** بعض أولويات الفكر التطوري للكائنات الحية، وذلك من خلال ملاحظاته وتأملاته في التركيبات البيولوجية وتطورها في الحيوان... كما ينسب إليه أيضا توجيه الفكر نحو وصف نشأة الحكومات وتحليل أشكالها وأفضلها، الأمر الذي يعتبر مساهمة مبدئية وهامة في دراسة النظم الاجتماعية والإنسانية[3].

عند الرومان:

امتد عصر الإمبراطورية الرومانية حوالي ستة قرون وتابع خلالها الرومان ما طرحه اليونانيون من مسائل وأفكار لكنهم وجهوا دراستهم نحو الواقع الملموس، ومع ذلك لا يجد الأنثروبولوجيون في الفكر الروماني

[1] سناء مبروك، رية تحليلية لملامح تطور الأنثروبولوجيا الاجتماعية الموضوع والمناهج والمجالات، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد التاسع والخمسون، العدد 2، 2022، ص 47.

[2] كريمة شعبان، مرجع سبق ذكره، ص 17.

[3] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مرجع سبق ذكره، ص 23.

ما يمكن اعتباره كإسهامات أصلية في نشأة هذا العلم ماعدا في أشعار كارلوس **لوكرتيوس Lecretuis** التي احتوت على بعض الأفكار الاجتماعية كالتطور والتقدم[1].

أما في الصين:

أشار الكثير من الأنثروبولوجيين أن الصينيين لا يعبؤوا بثقافات خارج حدودهم لنظرتهم العنصرية في اعتقادهم أنهم أفضل الخلق حيث قاموا ببناء سورهم العظيم كي لا تدنس أرضهم بأقدام غيرهم، وكما اهتم فلاسفتهم بالأخلاق وشؤون المجتمعات البشرية من خلال الاتجاهات الواقعية/ العملية في دراسة أمور الحياة الإنسانية ومعالجتها، لأن معرفة الأنماط السلوكية التي ترتبط بالبناء الاجتماعي في أي مجتمع تسهم في تقديم الدليل الواضح على التراث الثقافي لهذا المجتمع، وتسهم في تقديم الدليل الواضح على التراث الثقافي لهذا المجتمع، ويكشف بالتالي طرائق التعامل فيما بينهم من جهة ويحدد أفضل الطرائق للتعامل معهم من جهة أخرى، وهذا يفيد الباحثين في العلوم الأخرى ولا سيما تلك التي تعنى بالإنسان[2].

في العصور الوسطى:

يجمع المؤرخون أن هذه الفترة تمتد من القرن الرابع ميلادي إل القرن 14، وقد اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى كونها ارتبطت بتدهور الحضارة الأوروبية وارتداد الفكر إلى حقبة مظلمة من جهة ومن جهة ثانية بين عهدين هما: عهد ازدهار الفلسفات الأوروبية القديمة (اليونانية/الرومانية) وبداية عصر النهضة الأوروبية (التنوير) والانطلاق في مجالات جديدة من استكشاف العوالم الأخرى، وإحياء التراث الفكري القديم وإبداعات الفنون والآداب المختلفة، في الوقت الذي كانت فيه الحضارة الإسلامية تزدهر وتتسع لتشمل مجالات العلوم المختلفة[3].

يمكن إجمالا ذكر أبرز سمات الفكرية هذه المرحلة[4]:

- تدهور التفكير العقلاني وإدانة أي فكرة تخالف التعاليم المسيحية

[1] عيسى الشماس، مرجع سبق ذكره، ص 27.

[2] كريمة شعبان، الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، مطبوعة بيداغوجية، جامعة الجزائر 3، 2019، ص 19.

[3] عيسى الشماس، المرجع نفسه، ص 28.

[4] المرجع نفسه.

- اعتماد مختلف تفسيرات الكنيسة وما تقدمه من أفكار للكون والحياة الإنسانية سواء في منشئها أو في مآلها، بالإضافة إلى بلاط الملوك الذي يضم فئات من المثقفين كرجال الإدارة والسياسة والشعراء.
- التوسع في دراسة القانون (جامعة بولونيا) ودراسة الفلسفة واللاهوت (جامعة باريس) مما كانت له أثار واضحة في الحياة الأوروبية العامة (السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية) ومهد بالتالي للنهضة التي شهدتها أوروبا بعد هذه العصور.
- ظهرت في هذه المرحلة بعض الكتابات التي تحاول وصف بعض الشعوب غير أنها اتسمت بالطابع التخيلي مثل ما قام به الأسقف **إسيدور Isidore**الذي أعد موسوعة المعرفة أشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم ولكن بطريقة وصفية وسطحية ومتحيزة وكان ذلك في القرن 7، وقد ظلت هذه الموسوعة سائدة إلى غاية القرن 13، حيث قام الفرنسي **باتولو ماكوس Batholo Macus** بإعداد موسوعة أخرى حظيت بشعبية كبيرة في أوروبا.
- اعتمدت معظم التفسيرات في هذه الفترة على التحيز العنصري والديني وسادت نظرية الارتداد أو الانتكاس الحضاري Cltural Degradation.

الحضارة الإسلامية

امتدت الحضارة الإسلامية على نطاق واسع بعد الفتوحات الإسلامية التي شملت أقاليم من اسبانيا إلى الهند، تضمنت الآداب والفلسفة والأخلاق والمنطق ....وغيرها، وقد أسهم وضع المعاجم الجغرافية والموسوعات العلمية في تنظيم الحكم الإسلامي خلال القرن الرابع عشر ميلادي وشكلت هذه الموسوعات مادة خصبة للفكر الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية بالاعتماد على المشاهدة والخبرة الشخصية، ومن بين العلماء البارزين في هذه الفترة: **البيروني** الذي وضع كتابا حول الهند، الرحالة **ابن بطوطة** الذي اتسمت كتاباته بالطابع الأنثروبولوجي من خلال وصف حياة الناس اليومية وأنماط شخصياتهم وسلوكياتهم وقيمهم وعاداتهم، وكذلك **ابن خلدون** الذي زود الفكر الإنساني بمقدمته التي تعتبر من أهم مصادر النظريات الاجتماعية وأساسها العلمي وقد سبقت أفكاره دوركايم حول التماسك الاجتماعي، ويؤكد ابن خلدون أهمية القرابة والدين في خلق شعور التلاحم والالتزام المتبادل بين جماعة ما، ويتحدث ابن خلدون عن نشأة المجتمع الإنساني وتطوره ولا يستمر هذا المجتمع إلا بوجود سلطة قائمة على القهر بما تفرضه من قوانين ونظم وسولك عام تخضع لها

الجماعة. ويستند السلطان إلى العصبية التي هي بمثابة مفهوم مركزي في التحليل الخلدونية لنشأة المجتمعات وتطورها واندثارها[1].

في عصر النهضة الأوروبية:

شرع الأوروبيون بداية من القرن الرابع عشر ميلادي، بدراسة انتقائية للعلوم والمعارف الإغريقية والعربية، مترافقة بحركة ريادية نشطة للاستكشافات الجغرافية وتبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج اعلمي التجريبي، في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية والذي تبلور وتكامل في القرن السابع عشر. أسهمت هذه التغيرات في بلورة الأنثروبولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر، كعلم يدرس وتطور الحضارة البشرية في إطارها العام وعبر التاريخ الإنساني، الأمر الذي يستلزم توافر الموضوعات الوصفية عن ثقافات الشعوب وحضاراتها في أوروبا وخارجها، من أجل المقارنات والتعرف إلى أساليب حياة هذه الشعوب وترتيبها بحسب مراحل تطورية معينة، وهو ما يضع أساسا لنشأة علم الأنثروبولوجيا. من أبرز الرحالات الاستكشافية التي أثرت في علم الأنثروبولوجيا ما قام به **كرستوفر كولومبس** في القارة الأمريكية، حيث زخرت مذكراته عن مشاهداته واحتكاكاته بسكان العالم الجديد، بالكثير من المعلومات والمعارف عن أساليب حياة تلك الشعوب وعاداته وتقاليدها، اتسمت بالموضوعية نتيجة المشاهدة المباشرة[2].

لقد كان لرحلات كولومبس واكتشافه العالم الجديد عام 1492، أثره الكبير على أوروبا وإدخالها حقبة جديدة، وفي تغيير النظرة إلى الإنسان عامة والإنسان الأوروبي خاصة، مما أثر بالتالي في الفكر الأنثروبولوجي، ذلك لأن هذه الاكتشافات الجغرافية/الاجتماعية وما تبعها من معرفة سكان هذه الأرض بميزاتهم وأنماط حياتهم أظهرت بوضوح تنوع الجنس البشري، وأثارت كثيرا من المسائل والدراسات حول قضايا النشوء والتطور عند الكائنات البشرية. وتعتبر محاولة الرحالة الإسباني **جوزيه أكوستا** في القرن السادس عشر لربط ملاحظاته عن السكان الأصليين في العالم الجديد ببعض الأفكار النظرية المحاولة الأولى لتدوين المادة الاثنوجرافية والتنظير بشأنها.

ومن مميزات هذه الفترة مناهضة العلماء لفلاسفة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها وتكوين الطبيعة وقوانينها وصفات الإنسان الجسدية

[1] كريمة شعبان، مرجع سبق ذكره، ص 19.

[2] عيسى الشماس. مرجع سابق، ص 25

والعقلية والأخلاقية. وظهر نتيجة لذلك اتجاه لدراسة الإنسان عرف بالمذهب الإنساني (العلمي) اقتضى دراسة الماضي من أجل فهم الحاضر، حيث اتجهت دراسة الطبيعة الإنسانية وفهم ماهيتها وأبعادها وفق المراحل التاريخية/ التطورية للإنسان.

تبلور في هذه الفترة الاتجاه العلمي في الدراسات التجريبية والرياضية التي ظهرت في أعمال بعض علماء القرن السابع عشر من أمثال **فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت R.Decartes** و**اسحاق نيوتن Newton** وغيرهم، وأصبحت النظرة للإنسان على أنه ظاهرة طبيعية يمكن دراسته باستخدام البحث العلمي والمنهج التجريبي ومعرفة القوانين التي تحكم مسيرة التطور الإنساني والتقدم الاجتماعي، وهذا ما أسهم في تشكيل المنطلقات النظرية للفكر الاجتماعي وأدى إلى بلورة البدايات النظرية للأنثروبولوجية خلال عصر التنوير [1].

ويأتي القرن الثامن عشر ليحمل معه كتابات **جان جاك روسو J.J.Rossow** التي احتلت أهمية كبيرة لدى مؤرخي علم الأنثروبولوجيا بالنظر لما تضمنته في دراستها الأثنوجرافية للشعوب المكتشفة (المجتمعات البدائية) مقارنة مع المجتمعات الغربية/الأوروبية. لقد تميزت وجهة النظر الأنثروبولوجية عند روسو بالتجرد والموضوعية حيث تجلى ذلك في نقد بعض القيم والجوانب الثقافية في المجتمع الفرنسي، ويعتبر كتاب "العقد الاجتماعي" من البواكير الأولى للفكر الأنثروبولوجي. وإلى جانب روسو قدم **دي منتسكييه** كتابه "روح القوانين" الذي أوضح فكرة الترابط الوظيفي بين القوانين والعادات والتقاليد والبيئة، وانتقل اهتمام مونتسكييه بدراسة النظم السياسية وتأثير المناخ على نوعية الحضارة أو الثقافة إلى الكتابات الأنثروبولوجية وشكل مجالا واسعا للدراسات الأنثروبولوجية[2].

في ألمانيا تبلور فكر التفوق العنصري والنزعة القومية الشوفينية* (التعصبية) وظهر ذلك في كتابات كل من **جورج هيجل وجوهان فتخة** حيث جعلا الشعب الألماني الشعب الأمثل والأنقى بين شعوب العالم.

[1] كريمة شعبان، مرجع سبق ذكره، ص 24.

[2] عيسى الشماس، مرجع سبق ذكره، ص 37.

* الشوفينيّة هي الاعتقاد المغالي في الوطنيّة، وتعبّر عن غياب رزانة العقل والاستحكام في التحزّب لمجموعة ينتمي إليها الشخص والتفاني في التحيّز لها، وخاصّة عندما يقترن الاعتقاد أو التحزّب بالحطّ من شأن جماعات نظيرة والتحامل عليها، وتفيد أيضاً معنى التعصّب الأعمى. أمّا الكلمة الانجليزيّة (Chauvinism) في مدلولها الأصليّ فهي تحمل معنى الوطنيّة المفرطة الغيورة والعدائيّة، والإعجاب الحصريّ لدى الشخص بوطنه والحميّة العمياء للمجد العسكريّ، والاعتقاد المتحمّس بأنّ وطنه هو

أما كتابات **جوهان هيردر** فجاءت لتعزز فكرة التمايز بين السلالات البشرية من ناحية التركيب الجسمي والتفاوت فيما بينها بمدى التأثر بمظاهر المدنية وتمثلها لمقومات الحضارة وعلى هذا الأساس صنف **هيردر** السلالات البشرية إلى سلالة راقية وأخرى منحطة[1].

وفي ضوء هذه التجاذبات الفكرية والعلمية حاول دوركايم في سياق تأسيسه لعلم الاجتماع على أسس علمية أن يحرر المعطيات الأنثروبولوجيا للمجتمعات البدائية من النزعة البيولوجية النشوئية التطورية المتطرفة مؤكدا على فكرة السببية للظواهر الاجتماعية والتمسك بعملية التزامن بدلا من التعاقب الزمني، الذي يعتبر مبدأ للتاريخ وليس لعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، ووفقا لهذا المبدأ المنهجي عرض دوركايم القوانين الاجتماعية من خلال دراسته لظاهرة[2].

شكل القرن العشرين منعطفا حساما بسبب ثورات تداخلت أثارها وانعكست على الفكر الاجتماعي والأنثروبولوجي وهي **الثورة الفرنسية** (1789-1799) **والثورة الصناعية** التي بدأت أواخر القرن الثامن عشر **والثورة العلمية الثقافية** التي شهدت طفرات كبيرة في مجالات وأماكن متعددة بأوروبا، فبينما ركزت **الثورة الفرنسية** على أهمية الإنسان وحريته وكرامته كما حملت معه فكرة لتقدم وقد تمخض عن الثورة الصناعية الانتقال إلى عصر الألة واستغلال الطاقة والموارد والاتجاه نحو التصنيع، نتج عن هذا اتساع القاعدة الاقتصادية وازدهار التبادل التجاري وظهور الرأسمالية الحديثة وهو الأمر الذي دفع حركة الاستعمار خطوات كبيرة خاصة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر[3].

شهد القرن العشرين مراحل تكوين الأنثروبولوجيا وتطويرها لتصبح كيانا أكاديميا ومهنة متخصصة عند الكثير من العلماء والفلاسفة والباحثين، فعلى الرغم من أن الفكر الأنثروبولوجي قد ظل خلال العقدين الأوليين من القرن العشرين متأثرا إلى حدّ بعيد بالنظريات التي سادت وتبلورت في السنوات الأخيرة من القرن التاسع

أفضل الأوطان وأمّته فوق كلّ الأمم. وينسب لفظ الشوفينيّة إلى جنديّ فرنسيّ اسمه (نيقولا شوفان) كان شديد الغيرة على فرنسا، ومتفانياً في القتال في جيش الجمهوريّة مع نابليون في حروبه، دونما التفات أو شكّ بحصافته، أو مساءلة لجدارة قضيته، ينظر: الشوفينية – المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية(iicss.iq) أطلع عليه يوم: 2024/02/26 على الساعة 22:49

[1] عيسى الشماس، مرجع سبق ذكره، ص 38.

[2] فوزية زنقوفي: مرجع سابق، ص 14.

[3]

عشر فإن سرعان ما تغير وتحول إلى منطلقات جديدة، نتج عنها اتجاهات متعددة إزاء دراسة الإنسان وحضارته سواء كان منها نظريا أو منهجيا[1].

دفع هذا الاتجاه العلمي إلى نبذ الفكر الفلسفي الذي كان يتحفظ على قدرة العقل الإنساني في التوصل إلى الحقيقة المطلقة وهذا ما نتج عنه قيم فكرية جديدة تدعو إلى النظر إلى العقل والمنطق المحسوس والواقع الملموس كأدوات للمعرفة، وبعد أحداث الحرب العالمية الأولى ونتائجها السلبية على المجتمع الإنساني والتي شكلت نظرة تشاؤمية خاصة بعد ظهور النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا وبلغ هذا الاتجاه ذروته فيما عرف بالحركة الوجودية التي شاعت في فرنسا وعلى رأسها **جان بول سارتر**، وفي الجانب الأخر ظهر اتجاه تفاؤلي كان من أبرز رواده الفيلسوف جون ديوي والذي تبني موقفا صريحا مناهضا للفلسفة الميتافيزيقية[2].

أسئلة للمناقشة:

- كيف ساهمت السياقات السياسية والثقافية والعلمية في بلورة ميلاد الأنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته؟

[1] عيسى الشماس، مرجع سبق ذكره، ص 61

[2] المرجع نفسه.